الفصل الأول
عند منتصف الليل..

"إيلان كوهين إريائيل" أو كما يطلقون عليه صقر الموساد، رجل إسرائيل الأول وأشهر ضابط مخابرات إسرائيلي، وأذكى ضباط الموساد على الإطلاق، رغم صغر سنه إلا أن عقله الواعي يتقد خبرة وذكاءً، ويكن قلبه للعرب عامة وللفلسطينيين خاصة من الكره ما لو وزع على أهل الأرض لكفاهم، لذلك رأت المخابرات الإسرائيلية في كوهين مشروع جاسوس جيد، فتمّ تجنيده لصالح الموساد منذ أن كان في السابعة من عمره.

قام بإنجاز عمليات مخابراتية عديدة، يعجزعن القيام بها المخضرمون من رجال المخابرات، تجسس لأكثر من ست سنواتٍ على الأجهزة الحكومية في لبنان، رغم أن عمره الآن لا يتجاوز الثامنة والعشرين عاماً.. وكما أنه قام بتهريب يهود وأموال إلى الكيان الوليد، فكانت عملياته بمثابة أهمّ لبنة بناء في تاريخ إسرائيل.

ولد إيلان كوهين إرائيل لأبوين يهوديين بالغي الثراء من الطبقة الأرستقراطية بمدينة " بيونس آيرس " في الأرجنتين، في مثل هذا اليوم منذ ثمانيةٍ وعشرين عاماً.. وقضى الشطر الأصغر من عمره بالأرجنتين ثم هاجر لاحقاً إلى إسرائيل مع والديه.

عُرف عنه منذ الصغر النشاط الزائد والذكاء الحاد والانخراط في كل الأنشطة الممكنة كالسباحة والرماية وقيادة كل أنواع المركبات حتى الطائرات والغواصات منها، فكان إيلان بمثابة جيش بمفرده، كما أن بطلنا العظيم يتحدث أكثر من أربع لغاتٍ عالميةٍ بخلاف اللغة العبرية، بالإضافة إلى لغةٍ خامسة كان هو السبب في ابتكارها حتى

يتحدث بها ضباط الموساد وحدهم، وذلك منعاً لتسريب أسرار الموساد العسكرية والمخابراتية.

ونحن بصدد الحديث عن إنجازات السيد إيريائيل لا يفوتنا الحديث عن والدته السيدة إيريائيل، ألا وهي سيدة يهودية عريقة، لطالما ضحت بمالها ووقتها وجهدها من أجل بناء الوطن الجديد، بعدما كان العرب الفلسطينيون هم السبب في قتل زوجها وابنتها قبل مولد السيد إيلان بأيامٍ قليلةٍ في حادثٍ إرهابي خسيس يطلق عليه المسلمون العمليات الفدائية، ويزعمون أن ضحاياهم في تلك العمليات شهداء فيدخلون الجنة بلا حسابٍ أو سابقةِ عذابٍ.

معذرون، عقولهم أصغر من حباتِ السمسم، يُنهي أحدهم حياته وحياة غيره ثم يخبرك بعد ذلك أنه من الشهداء، ألا لعنة الله على كل العرب.

نعود مجدداً إلى حديثنا عن بطل الموساد العظيم، والقائد الذي كان وراء مجزرة حي الزيتون التي قمنا فيها بذبح أعدادٍ ليست هينة من الفلسطينيين، وعلى رأسهم الصحفيون.. من يومها، والسيد كوهين لم يعد مجرد ضابط مخابرات إسرائيلي مقر عمله مبنى الموساد فحسب.. بل قرر البطل أن يشنّ الغارات عليهم بنفسه.. أن يهبط إلى شوارعهم من السماء، ويخرج لهم من الأرض ليعلم في ماذا يفكرون؟ وعن أي شيءٍ يتحدثون؟.

لقد كان نزوله إلى الشارع الفلسطيني بمثابة نقطة فارقة في تاريخه الأمني، ولذلك فقد نوهت أجهزة الموساد منذ أن تمّ تجنيده وهو طفلٌ في السابعة على عدم نشر أية

صورة تخصه أو تخص غيره من رجال المخابرات، ولذلك لم يعرف أحد هوية السيد كوهين حتى الآن.

لقد نجح الجهاز في إخفاء شخصه عن الجميع، فلا أحد يعرف مَن هو إيلان كوهين إريائيل، هو بالنسبة للجميع بطل خارق لم يروه من قبل ولن يروه بعد، فهو بالنسبة لهم مجرد بطل يتحمل من أجل إسرائيل ما لم يتحمله أحد.. يعرّض نفسه للموت كل يوم آلاف المرات باندماجه وسط الفلسطينيين؛ ليحصد أرواحهم؛ ليقدمها هدايا لنا في أعياد الفصح والغفران.

وهنا نصل لختام التقرير الذي نعرضه لكم في مثل هذا التوقيت من كل عام احتفالاً بميلاد صقر الموساد.

نتلقى اتصالاتكم الهاتفية؛ لتهنئة البطل بمولده لكن بعد الفاصل كان معكم "حاييم ليفي" من القناة الأولى للتلفزيون الإسرائيلي.

****

استيقظت مبكراً كعادتها.. نظرت للسقف نظرةً طويلةً ناعسةً قبل أن تغلق المنبه الذي يستقرعلى الكمود المجاور.. تدثرت بالغطاءِ الثقيلِ جيداً بطريقةٍ توحي بأنها لا تنوي التحرك في هذا الطقس البارد..

زفرت زفرةً حارةً ثم تمتمت قائلة:

-ألا لعنة الله على الاحتلال.. اعتدلت في فراشها وكأنها تنفض عنها غبار النوم، وبخطواتٍ سريعةٍ اتجهت نحو دورة المياه، وكأنها تخشى أن تغير رأيها.. المياة المتجمدة في

الصنبورأنبأتها بأن الثلج بالتأكيد يتساقط بالخارج.. توضأت ببقايا ماء في أحد الأوعية، وقبل أن تكمل ارتداء ملابسها تناهى إلى أذنها صوت بوق سيارة تعرفه جيداً.

إنها السيارة الخاصة بالمحطة.. بالتأكيد وصل جميع الزملاء، الكل لديه حماسٌ عجيبٌ لتقريراليوم إلا هي، تعلم جيداً أن السلطات الإسرائيلية لن تسمح للصحفيين بالاقتراب من منزل الشهيد، وإن سمحت وبالفعل نجحوا في إجراء اللقاء المنتظر، فلن تسلم القناة من قطع الإرسال عنها لأيامٍ طويلةٍ قد تصل لعدة أشهر.. علي أيةِ حالٍ، ليس أمامها إلا المحاولة، وليفعل الله ما يشاء.

وضعت حجابها على عجلٍ، أغلقت باب البيت، وهبطت درجات السلم في بطءٍ يوحي بعدم حماسها لمهمة اليوم.. جلست في المقعد الأمامي للسيارة، دون أن تلقي التحية أو تنبس ببنت شفة كما هو معتاد منها في الأيام الأخيرة.

نظرت إليها "سلمى" في عطفٍ ثم قالت بحرصٍ:

-أما آن الأوان أن تخلعي عنكِ ثياب الحداد هذه، وأن تعودي لطبيعتكِ يا جهاد؟

نظرت إليها جهاد نظرة لومٍ، ولم تجب..

هتف ياسين من المقعد بآخر السيارة:

-لا تقلقي يا "سلمى"، إنها تقيم الحداد، وتعلن الحرب في مثل هذا الشهر من كل عامٍ، إنه الشهر ذاته الذي استشهدت فيه زهرة، وبمجرد أن ينقضي هذا الشهر تعود لطبيعتها لبؤة مفترسة، لا هم لها إلا أن تأخذ بالثأر.. لم تستمع جهاد لبقية الحديث.. شردت ببصرها عبر زجاج السيارة، تتأمل البرتقال المتساقط على الأرصفة، وتستنشق عبيره في لامبالاة، وكأن حديث الزملاء لا يخصها في شيءٍ.

انتبهت من شرودها على صوتِ سائق السيارة وهو يقول:

-انتبهوا، هناك دورية إسرائيلية.. هدأت السيارة من سرعتها، وحبس الجميع أنفاسهم، وأخرج كل منهم الإذن الخاص به.. وضعت جهاد حزام الأمان حول كتفها كإجراءٍ روتيني لابد أن يحدث.. نظرت إلى الجندي الواقف في تحفظٍ، ودون أن تنطق مدت يدها عبر نافذة السيارة؛ لتناوله الإذن الخاص بهم جميعاً.

وبصوتٍ هادرٍ كأنه الرعد قال الجندي:

- هناك أوامرُ عليا، تمنع التصوير لمدة ثلاثة أيام بالمنطقة.

ترك "حسام" المقود، وترجل في عنفٍ، ثم ضم قبضة يده موجهاً إياها للجندي، ولكن استوقفتها يد ياسين قبل أن تصل قبضته إلى هدفها، ثم هتف في هدوءٍ:

-لا تنس أن معانا سيدات.. الوقت ليس وقت شجارٍ أو قتالٍ.

رجع حسام للمقعد خلف عجلة القيادة مرةً أخرى.. نظر إليهم الجندي نظرة ظفرٍ.. استدارت السيارة عائدة من الطريق نفسه الذي جاءت منه.. وفي الثانية ظهراً، كانت جهاد تدير مفتاح شقتها بالباب، ودون أن تخلع حذاءها أو تبدل ملابسها، أمسكت بالآلة الكاتبة؛ لتكتب بعض المنشورات التي من المفترض أن توزع مساء اليوم، وقبل أن تنتهي من كتابة الفقرة الأخيرة، سمعت صوت طرقات على الباب.

حاولت "جهاد" أن تخفي الآلة الكاتبة في سرعةٍ قبل أن يمل الطارق، ويشعر أن في الأمر خطباً ما.. لابد أن الطارق أحد جنود الاحتلال، جاء ليستجوبها عن زيارة الصباح التي لم يُكتب لها النجاح.

بيدٍ مرتعشةٍ حاولت فتح الباب، بعد أن زادت الطرقات عنفاً، لكنها كانت المفاجأة، لم يكن الطارق سوى طارق ابن العم محمود.. نظر إليها "طارق" شذراً بطرف عينيه ثم قال:

-"جهاد"، والدي يريدكِ.

لم ترد عليه.. فقط أغلقت الباب، وصارت خلفه في خطواتٍ وئيدةٍ.. أخذت تنظر له من الخلف وتتأمل، كيف لهذا الكائن العجيب ألا يحوي داخله إلا الكره لها والحقد عليها.. وهي التي لم يرَ منها إلا كل خير، فإذا به يُكافئها، ويفعل كل ما هو قبيح تجاهها، وكأنها واحدةٌ من نسل إبليس.

انتبهت من شرودها على صوت باب الحديقة يفتح، دخل منه طارق أولاً.. صعد الدرج وهي تتبعه.. وجدت الجميع يلتف حول المائدة..

هش العم محمود في وجهها قائلاً:

-ماذا سيحدث لو أتيت للعيش معنا يا ابنتي، الجميع هنا يحبك.. انهض عن كرسيك يا طارق، جهاد هي مَن ستجلس بجانبي اليوم.. زفر طارق بعنفٍ ثم غادر كرسيه رغماً عنه.

أتت الأم، وابتسامة ودودة تزين وجهها.. وضعت صحاف الطعام على المائدة، وأخذت توزع الطعام في الأطباق قائلة:

-لا تمنحي تصرفات طارق الكثير من الاهتمام، حتى نحن يا ابنتي لا نجيد التعامل معه.

ضحك "طارق" ملء شدقيه ثم قال ساخراً:

-الحديث عني أصبح أهم من الحديث عن القضية الفلسطينيّة.

قال الوالد في أسى:

-لأنك من أهم أسباب سقوط القضية.

قال طارق مستنكراً:

-أنا!!!

وأخذ الحديث مساراً آخرَ غير محمود، فقالت الأم آمرة:

-كفوا عن الحديث، تناولوا أطباقكم بصمتٍ.

قال العم محمود:

-إلى متى سنصمت لابد من تقويم ابنكِ، إنه يعادي الفتاة، وكأنها قتلت كل أهله.

قال طارق ساخراً:

-مَن يدري؟ ربما هي بالفعل كانت السبب الرئيس لموت الكثيرين منهم، وآخرهم ابنتكِ.

نظر إليها نظرةً نارية، ثم قال بصوتٍ عابث:

-بالمناسبة، الفتاة اليهودية زارتني في مكتبي بالأمس، وأخبرتني أنها تريد مقابلتكِ لأمر ضروري وعاجلٍ جداً، ولا يحتمل الانتظار، ولولا المراقبة الشديدة عليكِ؛ لطبيعة عملكِ كصحفية لقابلتكِ بنفسها في بيتكِ، لكن هذا حتماً سيكون فيه هلاكها، لذلك إن كنتِ تستطيعين مقابلتها الليلة في الثانية صباحاً عند أشجار الزيتون في آخر الحي بالطريق الغربي فلا تترددي، أخبرتني أنها ستكون بانتظاركِ هناك.

ثم قال موجهاً الحديث لأبيه:

-أجبني يا أبي، ترى ما الذي وراء هذه الفتاة اليهودية التي زارتني أكثر من خمس مراتٍ لمقابلة جهاد؟ ترى هل تريدها من أجل حل القضية الفلسطينية؟"! ثم أدارعينيه نحوها قائلاً:

-أم لأنكِ خائنة يا "جهاد"؟!

نهضت عن كرسيها في عنفٍ، لكن يد الأم استوقفتها بقوةٍ، ثم قالت في توسلٍ بنبرةٍ حانيةٍ:

-سامحيه يا ابنتي، أقسم لكِ إلّم يعتذر لكِ الآن؛ لتبرأتُ منه حتى يوم القيامة.

تناول طارق ملعقة من طبق الحلو، وكأن الأمر لا يعنيه.. أزاح كرسيه للوراء بهدوءٍ، ثم قال ساخراً:

-"جهاد"، لماذا هذه الكلمة بالذات تثير غضبكِ ألأنكِ بالفعل خائنة؟!

قال العم محمود في ضيق موجهاً الكلام لطارق:

-اخرج من المنزل ولا تعد أبداً.. واعلم أنه من الآن فصاعداً لن تجمعنا بك مائدة طعام، ما دمت تأبى إلا أن تكسر قلب الفتاة.

******

لن أنسى هذا اليوم ما حييتُ، يوم أن أطلق عليا طارق لقب الخائنة، عيناه تنطق بها منذ زمنٍ لكن لسانه لم يلفظها إلا اليوم.. بعد جدالٍ عنيفٍ بينه وبين أسرته كنتُ أنا السبب فيه، انتهى بقسم العم على طارق ألا يجتمع بابنه في المنزل أبداً ما دمتُ أنا هناك.

شيءٌ عجيبٌ، أن تفضل هذه الأسرة البسيطة فتاة لاجئة على ابنها الكبير.. العم محمود يحب طارقاً، ويثق به، ويتكأ عليه في كل أمور حياته، ويرتضي منه كل أخلاقه إلا طريقته في التعامل معي.. في الحقيقة أنا لا ألوم عليه شعوره العدائي هذا نحوي، وعلى كلٍ سأحله من كلام أبيه، ولن أرضى أن أكون حجراً يفصل بينه وبين عائلته.. لن يراني أحدٌ منهم ثانية بعد اليوم، سأذهب إليه وأعتذر له عما بدر من والده بسببي لكنني قبل أن أذهب سألقنه درساً قاسياً، وسأخبره أنني ما كنتُ يوماً خائنة.. لعلكم تتعجبون من موقفه تجاهي لكني سأحكي لكم القصة من البداية.

أنا "جهاد"، اسمٌ على مسمى، غريبة في هذه الحياة، لا عشيرة تحميني، ولا نسب يمنع عني الأذى.. مصرية الميلاد، فلسطينية النشأة، لا أذكر من طفولتي إلا أحداثاً قليلة َجداً، خاصة تلك الليلة التي لن أنساها أبداً، عندما حدثتنا أمي أنا وأخي كأننا رجال أشداء، يجب أن يحملوا معها المسئولية.. تنهدت ثم قالت:

-يبدو أن الرئيس جمال عبد الناصر لديه موقف من بقاء اليهود الأجانب، وغير معلومي الأصل بمصر ونحن منهم.. خاصة في ظل ظروف الحرب التي تخوضها الدول العربية مع إسرائيل، وهو ما أدى إلى تطور الأمر من معاداة لدولة إلى معاداة دينية مع اليهود، لذا لقد رتبتُ كل أمور السفر وسنغادر كلنا غداً في الصباح الباكر، تاركين خلفنا مدينة الإسكندرية، وكل مصر؛ لننعم بحياة هانئة في وطننا إسرائيل.

وفي اليوم التالي، غادرنا شقتنا بلا عودة.. طرقت أمي باب الشقة المقابلة؛ لتخرج لنا الخالة صفاء باكية؛ لعلمها بسفرنا، تركتها تودع أمي، وركزت كل اهتمامي نحو ابنتها صديقتي" حياة ".

بعد أن قبلتُ صديقتي " حياة "، واحتضنتها بقوة، انهمرت دموعي دون قصدٍ مني، قلتُ لها ودموعي تسبقني:

-" سأعود قريباً من أجلكِ ".. رغم طفولتي، كنتُ أعلم أنه في الحقيقة لا عودة لي، وأنه قد كتب علينا الفراق في كل محطات حياتنا.. أنا وأخي وأمي، تلك المرأة التي خذلها زوجها، وتوفى بعد إنجابها لي بثلاث سنين.. ذهب فجأة دون سلامٍ أو وداعٍ تاركها لمصيرها المحتوم لتواجهه وحدها دون أن يساندها أحد أو يرفق بحالها أحد.

احتضنت أمي جارتها بعدما حاولت جاهدة إخفاء دموعها، فما كان من الخالة صفاء إلا أن قالت بصوتٍ يحمل رنة البكاءِ:

-الوطن وطنكِ، وكلنا أهلكِ، لن يقترب أحد منكِ ولا من طفليكِ.. منذ أن توفى زوجكِ، وأنتِ تريدين الرحيل، هل قصر أحدنا معكِ أو أساء أحد لأولادكِ؟ نحن اعتدنا عليكِ، واعتدتِ علينا فلمَ السفر؟.. من أين ستأتين بجيرانٍ مثلنا في إسرائيل؟.

لم تجب أمي، احتضنتها من جديدٍ، وقلبتها قبلة ًأخيرة.

كنتُ حينها أقنع صديقتي حياة ألا تصاحب أحداً بعد رحيلي، وأنا لن أمكث طويلا ًبعيداً عنها وسأعود لنمارس ألعابنا سوياً من جديد.

انتبهتُ إلى صوت أمها وهي تقول لأمي:

-هذا كتاب قرآن، ضعيه في حقيبتكِ دائماً حتى يحفظكِ الله وأولادكِ به.

رغم أنني لم أر خالتي صفاء تقرأ منه يوماً، إلا أنني ودون قصدٍ مني كنتُ أشعر بقدسية هذا الكتاب الذي يجله ويحترمه المسلمون، لدرجة أن معظمهم يحفظه عن ظهر قلبٍ حتى صديقتي حياة، كانت واحدة من أولئك الأطفال الذين يذهبون يومياً إلى حلقات التحفيظ بالمسجد.. ولطالما طلبتُ من أمي الذهاب معها لكنها كانت ترفض في كل مرةٍ.. في النهاية أدركتُ أنني يهودية، ولا يحق لي الذهاب إلى هناك.

انتهت مراسم وداعنا مع أهل الحي، بعضهم حزين والبعض الآخر شامت.. على كلٍ لم يكن هذا يعني فتى في الثامنة من عمره، وفتاة في السادسة من عمرها.

وعلى متن سفينة " زيم " الإسرائيلية التي كانت تحمل آخر فوجٍ من اليهود المقيمين بمصر؛ لتقلهم إلى أرض الوطن إسرائيل.. تجاوز عددنا المائة والخمسين، كلنا من يهوديي الديانة سواء مصريين الأصل أم لا.

أخبرنا ربّان السفينة أن المسافة لإسرائيل تستغرق أكثر من عشرة أيامٍ، فليتحل الجميع بالصبر.. لم أنتبه لكلام الربان عن الوقت، ولو انتبهتُ لتمنيتُ أن يطول الوقت أكثر من هذا، لم لا وأنا سأقضي كل هذه الأيام في اللعب مع أخي الذي يكبرني بعامين على متن سفينة بقلب البحر الأبيض المتوسط.

لطالما أشار هو منبهاً إياي لأحد الشعب المرجانية الزاهية الألوان والجميلة التفاصيل.. ولطالما لفتُ انتباهه لأحد النجمات البارزة ليلاً، مقيمين شجاراً في النهاية من أجل تحديد مَن يملك هذه النجمة مطلِقاً عليها اسمه إما أنا وإما هو.. وفي أحد المرات، قطع شجارنا فجأة صوت صريخ والدتي وهي تصيح:

-لستُ جاسوسة أو خائنة، هذا كتاب قرآن، أهدتنيه جارتي المسلمة، معتقدة أنه سيحفظني من كل شر، لم أستطع ردها فقبلته كهدية.. تعالت الأصوات، وكثر اللغط، وأمسك أحدهم بالكتاب فألقاه في اليم.. انتفضتُ أنا، وشددتُ على يد أخي وباعتقادٍ طفولي، ظننتُ أن الشيء الوحيد الذي يحفظنا قد فقدناه.

ارتفع صوت أمي، بعدما لطمها الرجل الذي ألقى الكتاب في البحر على وجنتها فسكنت قليلاً لتستعيد قوتها ثم أعادت له اللطمة.. جنّ جنون الرجل، وأمسك أمي من عقصة شعرها مجرجراً إياها إلى غرفة السيدة شيرا مشرفة الترحيل في السفينة.

اقتربت المرأة من أمي بمجرد سماعها الكلمات من فم الرجل الذي أضاف إلى ما حدث أحداثاً أخرى كذباً وافتراءً قائلاً وهو ينظر لأمي بتشفٍ:

-لقد قالت لي السيدة قبل أن توجه قبضتها إلى فمي، لماذا ألقيت الكتاب يا سارق الأرض والعرض؟ لعنة الله عليك وعلى كل إسرائيل.

ودون أن تستفسر السيدة شيرا من صدقه اتجهت إلينا ملوحة بإصبعها في وجه أمي ومهددة إياها:

-سنحرمكِ من دخول البلد الذي تلعنين.. وما دمتِ تعتقدين أننا سارقو الأرض، فلماذا أنتِ ذاهبة إلينا؟ أوقفوا السفينة.. قالت السيدة شيرا آمرة.

******

انفجارٌ عنيفٌ بالواجهة المقابلة، قطع عليها سيل الذكريات التي أمامها.. تقدمت نحو النافذة، وفتحتها فوجدت الكثير من الأشخاص يتوافدون إلى المنزل المقابل لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، لم تمضِ بضع دقائق حتى جاء أحد الأطفال يهتفُ من بعيدٍ:

-اليهود يهاجمون البلدة، أغلقوا النوافذ، وأطفئوا المصابيح.

لم يتحرك أحد، بل ازداد نشاط الجميع، وكأنهم خلية نحل، قال أحدهم هاتفاً مرةً أخرى:

اليهود على مشارف البلدة، سأله طارق بعصبيةٍ:

-مَن قال لك؟!

-لقد رأيتهم بعيني، إنهم يقتلون كل مَن يقابلهم.

في تلك اللحظة تحديداً، تركت جهاد موقعها خلف النافذة، ثم أمسكت بآلة التصوير الخاصة بها على عجل، وهبطت درجات السلم الخارجي؛ لتوثيق هذا الانفجار لكنها بعد دقائق قليلة عن بدء التصوير فوجئت بطارق يضع يديه على مقدمة الكاميرا هاتفاً بحمقٍ :

-كفاكِ رعونةً. الوقت ليس وقت تصوير، إنه وقت إنقاذ.

ردت عليه ببرودٍ ودون أن تنزل آلة التصوير:

-إذن، قم بدورك أنت في الإنقاذ، أما أنا فدوري هو تعريف العالم أجمع ما تقوم به إسرائيل عند منتصف الليل!

جذب منها طارق آلة التصوير بعصبية ثم قال حانقاً:

-ألم تسمعي قولهم بأن اليهود على مشارف البلدة؟ لو رآكِ أحدهم وأنتِ تقومين بالتصوير لقاموا بتفجيرنا نحن أيضاً، ولن يسلم من الحي أحد.

-ليكن.. ما الفرق بين الحياة التي نحيها الآن وبين الموت؟

-هو الفرق ذاته بين الموت في بيوتنا والموت في ساحة معركة.

-إذن، فاذهب أنت؛ لتمارس واجبك في ساحات المعارك، واتركني أمارس واجبي بين شوارع القرى وأزقة غزة.

-كفاكِ سخافة، الوقت ليس وقت جدال.

-إذن، فاذهب عني واتركني وشأني.

جذبت آلة التصوير من بين يديه، ولّته ظهرها، وأكملت ما كانت تقوم به.. لابد أن يرى الجميع هذا التفجير الشنيع الذي لم يهدف لشيءٍ سوى القضاء على الشاب " أحمد ناصف ".

ذلك الطبيب الذي شهد الجميع حفل تخرجه أول أمس، الجميع منحه التهنئة والتبريكات إلا خطيبته لقد قتلها أحد جنود الاحتلال قبل عامين، عندما كانت عائدة من القدس القديمة.. نزع أحد اليهود عنها حجابها متلذذاً بالغضب الذي يلوح على وجهها، فما كان من الفتاة إلا أن بصقت في وجه ثم أتبعت البصقة بسيل من الحجارة التي وصلت إحداها إلى هدفها وأصابت عينيه.. فما كان من الجندي إلا أن أطلق الرصاص عليها لتستقر إحدى الرصاصات بمنتصف جبهتها.. ولم تعد الفتاة إلى بيتها إلا جثةً هامدةً محمولةً على الأكتاف.

منذ تلك الحادثة، ولا هدف لأحمد في هذه الحياة إلا أن يتخرج في كلية الطب كما كانت تحلم خطيبته دائماً، لقد كانت هي الأخرى زميلة له بالجامعة نفسها.. أراد ألا ينتهي دوره في هذه الحياة قبل أن يحقق حلمها بنجاحه.

بعدما انتهى حفل التخرج أول أمس، وقف الشاب أما قبرخطيبته قائلاً:

-لقد أنجزتُ ما كنا نحلم به سوياً، وحققتُ الحلم الذي كنتِ به تحلمين، ولم يتبق لي إلا الثأر.. وأعدكِ أننا سنلتقي قريباً.. قريباً ينادي عليكِ أحد الملائكة قائلاً:

-الطبيب الشهيد " أحمد ناصف " يريدُ خطيبته فاجمعوه بها.

لم يصدق أبناء الحي أن أحمد سيضحي بحياته عاجلاً هكذا من أجلها، إلا أنا كنتُ أشعر أن الفقد الذي يستوطن قلب الشابِ سيدفعه لأن يفعل، وبالفعل بالأمس تم تفجير أحد الدوريات الإسرائيلية التي تستقر على مشارف الطريق الشرقي للحي.. وأشارت أصابع الاتهام كلها إلى الطبيب الشاب، وهكذا لم يمض اليوم إلا واسمه بين عداد الشهداء.

تنبهت جهاد من شرودها على صوت التكبيرات التي تهز أرجاء المكان وأحدهم يهتف:

-" لا إله إلا الله.. الشهيد حبيب الله ".

لقد نجحوا في استخراج جثة الشهيد من تحت الأنقاض.. حاولت أن تنخرط بين الواقفين، فما كان منهم إلا أن أفسحوا لها الطريق، بعدما لفت انتباههم آلة التصوير التي تحملها.. ركزت التصوير على الجثة الممدة فوق المحمل.. الرأس المهشم، واليد المقطوعة التي تستقر إلى جانب صاحبها لم يمنعاها من إكمال التصوير.. من الآن فصاعداً يجب ألا تجزع لمثل هذه الأمور، فقد باتت مثل هذه المشاهد هي التي ستنام وتستيقظ على رؤيتها.

في تلك اللحظة تحديداً انتبهت إلى أن أحدهم ينحني على الرأس المهشم ويقبله، وهو يهتف في بكاءٍ:

-والله ما توقعت أن تبيت بمنزلك في هذه الأيام يا أحمد.. لطالما طلبتُ منك أن تغادر الحي، وألا تعود الآن.. ولطالما حاولتُ إقناعك أن مرضانا بحاجةٍ إليك، لكنك أخبرتني أن روحك قد عافت الحياة فلمَ العيش؟!

اليوم أدركت أن وفاتنا أهم من حياتنا، وأن لموتنا قيمة أكثر من استمرارنا على قيد الحياة، وأن هذا الوطن لن يحرر إلا إذا قدمنا أرواحنا قرباناً على معبده.. اذهب في سلامٍ يا صديق طفولتي، ويا رفيق دربي، ويا جاري الشهيد.. سقطت دمعةٌ من عيني جهاد فلم يكن المتكلم الباكي سوى

" طارق " .

تعالى في الأفق صوت عربات الدوريات الإسرائيلية، فما كان من جهاد إلا أن ركضت نحو بيتها يتبعها طارق الذي أمسك بها قائلاً وهو يلهث:

-لا تخفي آلة التصوير في منزلكِ يا جهاد، لابد أنهم سيقومون بتفتيشه.

نظرت حولها في حيرة، لكنه قال وهو يمسك بالآلة:

-اتركيها لي، سأتكفل أنا بإخفائها.

وقبل أن تجيب، كان طارق قد أمسك بالآلة راكضاً بها نحو الحديقة الخلفية لبيتهم.

******

نظر الجميع إليها وعيونهم مترقبة، ترى بماذا ستحكم السيدة شيرا على المرأة وطفليها؟ ووسط ذهول الجميع قالت تلك السيدة المتعجرفة:

-ألقوها وأبناءها في اليم، إنها جاسوسة.

ركضت أمي نحونا، وانحنت بمحاذاتنا لتحتضننا معاً، ونظرت إلينا بعينين تملؤهما الدموع؛ لتلقي علينا نظرة الوداع، حينها كانت السيدة قد أصدرت الأمر، وعندما لم يتحرك أحد من الرجال الموجوديون على السفينة، قالت السيدة بهدوءٍ يثير الخوف من كل ما هو إسرائيلي:

-ما بكم يا رجال؟ أنقذوا وطنكم من مثل هؤلاء الخونة، ثم إنه لم يتبق بيننا وبين الشاطىء سوى أميالٍ قليلة، ومن الممكن أن تنجو هذه الشقية وأبناؤها.

لم تكد المرأة تنتهي من كلامها، حتى تحرك الرجل الذي كان سبب الشجار من البداية.. أمسك بأمي ورجل آخر أمسك بي.. امتلأ قلبي بالفزع، ونظرتُ تجاه أخي الذي فر الدم من عروقه كلها واستقر بوجه، ثم حولتُ بصري ناحية أمي، فوجدتها تبكي بين يدي الرجل وتهتف بصوت عالٍ:

-أبنائي... "الملتقى الجنة"

هنا ركض يوسف نحوها محاولاً الدفاع عنها، فأمسكت أمي بيده وجذبته بعيداً عن الرجل، وقالت مكررة تذكر هذا جيداً:

-يوسف.. "الملتقى الجنة"

لمعت الصواريخ في السماء وكأن الحرب العالمية قد اندلعت من جديد.. ألقى الرجلان بنا ولامس جسدي المياة الباردة ولم أعد أتذكر شيئاً.

******

اليوم حدث شجار عنيف بيني وبين أبي كانت جهاد سبباً فيه، تلك الفتاة التي ساقها القدر إلينا منذ سنين؛ لتنغص علينا حياتنا؛ ولتحل لعنتها على أسرتنا الصغيرة..

نجحت في الوصول لقلب أبي وأمي، فأصبحا يعاملانها وكأنها ابنتهم بل أغلى أبنائهم على الإطلاق، في حين كنتُ أنا لا أطيق النظر في وجهها لمدة دقيقةٍ واحدةٍ.

أكنّ لها شعور الكراهية منذ أن رأيتها وأنا طفل صغير، حينها كنت طفلاً صغيراً لم يتجاوز عمره التاسعة.. طفلٌ لا يشغله من الدنيا شيءٌ سوى أن يتوقف دك المباني بالصواريخ لساعةٍ واحدةٍ فقط حتى يتمكن من اللعب مع أقرانه، كل معاناتي تنصبُ حول رفض أمي خروجي من المنزل لممارسة اللعب كحقٍ شرعي لكل طفلٍ في مثل عمري، وكانت حجة أمي الوحيدة أنها تخشى أن تصيبني إحدى رصاصات بني صهيون الغادرة.

عجباً، ألم تدكّ الصواريخ مَن هم في بيوتهم وعلى فروشهم؟.. ألم يكن سبب رحيلنا من القدس القديمة قبل ثلاث سنوات تلك المذبحة التي أقامها اليهود على أولئك العزل الذين لم يبرحوا ديارهم ولم يغادروا فروشهم؟.. في النهاية رضخت لأمر أمي فلا مفر منه.

جلستُ أنا وأختي زهرة نلعب الورق مرة ونتشاجر مرة أخرى، حتى يُداعب النعاس أجفاننا وننام، لكن لم تمر ساعة ونصف الساعة، حتى سمعنا صوت طرقاتٍ مسرعةٍ على باب منزلنا، ظننا كلنا أن أحدهم جاء؛ لينبهنا بعدم الخروج من المنزل؛ لوجود بني صهيون في الخارج، وعندما ذهبت أمي لتفتح الباب، والقلق مرتسمٌ على ملامحها، لم يكن الطارق سوى أبي واثنين من زملائه يلهث جميعهم من فرط التعب.

وضع أبي ما كان يحمله بين يديه بحرصٍ شديدٍ، ولم يكن حمله سوى امرأة تبدو في أواخر العشرين من عمرها، وإلى جانبه وضع زميل له طفلة صغيرة يبدو أنها أصغر مني بقليل.

هتف أبي لأمي قائلاً:

-لقد وجدناها تصارع الغرق أثناء صيدنا وتتمتم:

-أبنائي أبنائي.. وما أنقذناها حتى فقدت الوعي.. وضعناها في القارب، وبعد بحث طويل لم نجد سوى هذه الصغيرة.. سنذهب بالصغيرة إلى المشفى، فحالتها تبدو خطيرة، أما أنتِ فاعتني بالمرأة جيداً حتى أعود.

خرج أبي حاملاً الفتاة الصغيرة مع رفيقيه، وبقيتُ أنا وأختي نرقب تلك المرأة، نرقب كل حركةٍ من حركاتها، وكل سكنةٍ من سكناتها، حتى فتحت عينيها فذهبنا مهرولين إلى أمي التي عادت حاملة بين يديها كوب أعشاب ساخنة.. وضعته بجانب السيدة التي ما إن فتحت عينيها حتى بادرتها أمي بابتسامةٍ قائلةً:

-حمداً لله على سلامتكِ.

تمتمت ببعض الكلمات التي لم تتعدَ شفتيها.. وضعت أمي بجانبها جلباباً فلسطينياً ومنشفة ثم قالت:

-الطريق إلى دورة المياة من هنا، لكن المرأة كانت تردد في وهنٍ بعض الكلمات التي فهمنا منها أنها تسأل عن أبنائها، وقبل أن تجيبها أمي مطمئنةً إياها على الفتاة، فقدت المرأة الوعي من جديد.

بعد دقائق قليلة عاد أبي حاملاً الفتاة وجلس بجانب المرأة في صمتٍ ليتأمل ملامحها التي خطها الحزن بخبرة سنين.. ثم قال موجهاً الكلام لأمي:

-لا تقلقي، غداً سنعرف كل شيء.

هذه كانت البداية التي حُفرت في ذاكرتي رغم صغر سني، وتلك كانت الحكاية التي قلبت مجرى حياتنا رأساً على عقب.. ورغم مرور تسعة عشر عاماً على هذا اللقاء، إلا أنني أشعر أنه قد حدث البارحة.. صوت انفجارٌ عنيفٌ عم أرجاء المكان فلم يدرِ طارق بنفسه إلا وهو يركض إلى الخارج يتبعه والده وأخوه الصغير.

****